مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 02 السنة 2021 ص 14 - 35

تاريخ الإرسال: 2020/01/17 تاريخ القبول: 2021/01/26
تاريخ النشر : 2021/04/30

توظيف الآثار المحلية في احتفالات الذّكرى المئوية(1830 – 1930) لاحتلال الجزائر-الأبعاد والخلفيات دراسة تحليلية-

The use of local antiquities in the centenary celebrations of the occupation of Algeria (1830 1930)- Dimensions and backgrounds -

بن صالح حورية
جامعة تلمسان (الجزائر) . bensalahhouria46@gmail.com

الملخص:

احتفل الفرنسيون بمرور مائة عام على احتلالهم الجزائر (1830–1930)، وقد تميز ذلك الاحتفال بتنظيم تظاهرات علمية، وثقافية، ودعائية ضخمة، بدأ التّحضير لها سنة 1925، وتواصلت نشاطاتها بشكل متقطّع إلى غاية 1939، حيث شملت برامجها المتنوّعة عقد مؤتمرات علمية، وتنظيم تظاهرات ثقافية وسياحية، وتدشين هياكل وصروح ثقافية ونصب تذكارية جديدة، وترميم عدد معتبر من المعالم التّاريخية، وإعادة تهيئة الكثير من المواقع الأثرية. كما تمّ توظيف التّراث الأثري بشكل انتقائي لمكوّناته الفرعية في تلك التّظاهرة.إذ يسعى هذا المقال إلى تحليل خلفيات وأبعاد ذلك برؤية أكاديمية متفحصة.

الكلمات المفتاحية: الآثار؛ الجزائر؛ الاحتلال الفرنسي؛ الذكرى المئوية؛ توظيف.

Abstract:

The French celebrated the centenary of their occupation of Algeria (1830-1930), which was marked by the organization

of scientific, cultural and propaganda events that they began to prepare for in 1925, and continued until 1939. Its various programs included organizing scientific conferences, organizing cultural and touristic, inaugurating new cultural structures and monuments, and restoring several historical monuments and archaeological sites. Concisely, the archaeological heritage with all its sub-components was selected and used extensively in this show, that intended to glorify the French occupation's victory over Algerian people's resistance permanently, and establish a western settlement's foundation in Algeria forever by their false beliefs, and this was confirmed by the historical events later.

Keywords: Archaeological sites; Algeria; The French occupation's; The centenary Celebrations; The use.

المؤلف المرسل: بن صالح حورية، bensalahhouria46@gmail.com

1.مقدمة:

رصدت الحكومة الفرنسية غلافا ماليا هائلا تجاوز 130 مليون فرنك آنذاك لتغطية نفقات مختلف الأنشطة المبرمجة بداخل الجزائر وفرنسا في إطار احتفالها بالذّكرى المئوية للاحتلال سنة 1930؛ كما رافقتها حملة دعاية وإشهارية كبرى، فيما شمل البرنامج عقد مؤتمرات علمية، وطبع تسعة وثلاثين كتابا ضمن السّلسلة الموسومة بـ:"مجموعة ذكرى الاحتفال بالمئوية"، تيّمنا برقم الأبحاث العلمية المنشورة بين سنتي (1840–1850) في سلسلة "الاستكشاف العلمي للجزائر"، المواكب لحملة الاحتلال من قبل، والقيام بأشغال صيانة وترميم المعالم التّاريخية، وتهيئة المواقع الأثرية والطّبيعية، وإقامة معارض دعائية في مختلف المجالات، ناهيك عن تدشين منشآت تذكارية جديدة خاصّة بتمجيد تلك الاحتفالية. وقد وُجهت الدّعوات إلى كثير من الشّخصيات والصحف الأجنبية، كما وزعّت كُتيْبات إشهارية على المكتبات

العامّة، والمدارس الفرنسية بمختلف أطوارها بغرض تحسيس مختلف شرائح المجتمع بأهمية الحدث، وإبراز بعده الرّمزي العميق.وعليه يمكن إثارة الإشكالية الآتية:ماهي دوافع وخلفيات توظّيف التّراث الأثري الجزائري على نطاق واسع في احتفالية الذكرى المئوية(1830 – 1930) لاحتلال الجزائر؟ وما الغاية من التّوظيف الانتقائي لبعض مكوّناته الفرعية دون البعض الآخر؟ وما الآثار المباشرة، وغير المباشرة النّاجمة عن ذلك؟.

2. الظّروف العامّة المحيطة بتنظيم الاحتفال:

1.2 الظّروف الدّاخلية: كانت فترة الكفاح المسلح للشّعب الجزائري في القرن التاسعة عشر ميلادي طويلة ومرهقة، حيث دامت قرابة السبعين عاما، قدّم من خلالها الجزائريون تضحيات جسام، فاستشهد الكثير من أبنائهم، وتشرد آخرون، وجُرد الباقون من أملاكهم وثرواتهم، وطعنوا في كرامتهم الوطنية والحضارية وفي مقدساتهم الدينية[1]. ومع بداية القرن العشرين فكر الشّعب الجزائري في تغيير أسلوب كفاحه،حيث انتقل من الكفاح المسلح إلى الكفاح السّياسي، والذّي سرعان ما تجسّدت ملامحه الباكرة في أربعة تيارات فكرية رئيسة هي:

– **دعاة المساواة بين الأهالي والمعمرين في الحقوق والواجبات أمام القانون:** بدأ هذا التيار المطالبة بتحقيق المساواة بين الأغلبية من الأهالي والأقلية الأوروبية المستعمرة، والأقدام السّوداء، وقد تجسد في تجربة الأمير خالد ورفقائه مع نهاية الحرب العالمية الأولى إلى غاية منتصف عقد العشرينيات[2].

– **دعاة التّجنيس:** تطور التيار الأوّل إلى المطالبة بالتّجنيس والإدماج، أي محاولة ترقية المجتمع الجزائري إلى مصاف المعمرين، وهي تجربة خاذها الدكتور ابن جلول، وفرحات عباس من النّخبة المثقفة، لكن سرعان ما منيت تلك الدّعوة بفشل

ذريع بسبب رفض كلا الطرفين لها: فالأوروبيون باعتبارهم أقلّية صغيرة تستمدّ سيطرتها وقوّة سطوتها في البلاد من سياسة "الميز العنصري"التّي طبعت حركة الاحتلال الغربي المعاصر بلا استثناء، أو تمييز؛وأغلبية الأهالي التّي رأت في تلك الخطوة تنصّلا صارخا من هوّيتها الثّقافية والحضارية، وتنازلا على ممتلكاتها للقوّة المحتلّة مجانا[3].

– **تيار الاستقلال:** برز هذا التّيار في منتصف عشرينيات القرن العشرين (20)، وقد تجسّد على وجه الدّقة والتّحديد في حزب"نجم الشّمال الإفريقي" بداية من سنة 1926[4]، حيث نادى باستقلال الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، إلاّ أنّ فكره التّحرري الصّريح آثار مخاوف السلطات الفرنسية منه، ودفع بها لحلّه في سنة 1929 بحجة أنّ برنامجه يمس بأمن السّيادة الفرنسية في شمال إفريقيا[5].أي رفضها الضّمني لمناقشة فكرة استقلال تلك البلدان جملة وتفصيلا في تلك الأثناء.

– **التيار الإصلاحي:** بدأ مع "نادي التّرقي" أواخر عقد العشرينيات، وقد ركز جهوده على الدفاع عن هوّية شخصية الجزائر وبعدها الثّقافي والحضاري العريق[6]. وفي المقال كانت أقلّية المعمرين، ومن بينهم فئة الأقدام السّوداء على وجه الخصوص بوصفهم الجيل الثّاني من الغربيين الذي ولد وترعرع في الجزائر يعمل جاهدا على تكريس أكذوبة "الجزائر فرنسية" بشتّى الطّرق[7]، حيث جاءت فكرة تنظيمهم الاحتفال بالذّكرى المئوية لاحتلال الجزائر كوثبة عملاقة للقفز على الحقائق التّاريخية، ومحاولة ضرب الحركة الوطنية بمختلف تياراتها النّاشئة في الصّميم.

2.2 الظّروف الخارجية: تميّزت الظّروف المحيطة بالجزائر آنذاك على الصّعيدين الإقليمي والدّولي بحدثين بارزين، أوّلهما ظهور بوادر النهضة العربية الإسلامية في العالم الإسلامي على أيدي المصلحيْن جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده الذي زار

الجزائر عام 1905، وعقد فيها عدّة أنشطة في سبيل هيكلة النّخبة الجزائرية، وتوعية مختلف شرائح المجتمع. وثانيهما كشف الرئيس الأمريكي "ويلسون"(WILSON) عام 1917عن مبادئه الأربعة عشر، والتّي من بينها مبدأ تقرير مصير الشّعوب المستعمرة[8]. وهو ما دفع بفرنسا فيما يبدو للتّعجيل بحسم المسألة الجزائرية لفائدة الاستيطان الغربي الدّائم، قبل قيام النّظام الدّولي الجديد، الذي كان يروّج له "ويلسون" مع نهاية الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918)، قبل أن تنفلت زمام الأمور من بين يديْها في عقب تأسيس "عصبة الأمم" سنة 1922.

3. مجالات توظيف الآثار في نشاطات التّظاهرة:

شمل برنامج التّظاهرة نشاطات مكثفة كما سلفت الإشارة من قبل، حيث تمثلت على وجه الدّقة والتّحديد في عقد مؤتمرات أكاديمية، وطبع كتب علمية، وحوليات من طرف جامعة مدينة الجزائر، وتنظيم حفريات أثرية كبرى، وصيانة وترميم الآثار الرومانية بالجزائر[9]، كما تم بناء العديد من المتاحف، إضافة إلى تنظيم معارض دعائية للثّقافة، والفلكلور، والسّياحة[10].

1.3 استحداث وإعادة تأهيل متاحف التّراث الثّقافي:تمّ في هذا النّسق العام استحداث وتأهيل المتاحف الآتية:

– **إنشاء متحف الفنون الجميلة:**أوّل من تقدم بفكرة بناء متحف الفنون الجميلة هو "جين ألازار" (JEAN ALAZARD)، وأعضاء جمعية "أصدقاء متحف الجزائر" برئاسة السّيد "أدولف ري" (ADOLPHE REY)، وكان ذلك في سنة 1927،حيث تمت الموافقة على دراسة المشروع من طرف الحكومة العامة في الجزائر برئاسة "فيوليت" (VIOLETTE)[11]. وقد أسندت مهمّة تصمّيم بناء مقرّه للمهندسيْن المعماريين "رينييه" (REGNIER)، و"غيون"(GUION)، حيث انطلقت الأشغال به

بداخل حديقة التّجارب النّباتية في شهر سبتمبر سنة 1928[12]. وكان مصدر تمويله صندوق المحافظة العامة للاحتفالات بالذّكرى المئوية، فيما بلغت قيمة تكلفته الإجمالية آنذاك 5.555.000 فرنكا فرنسيا[13]؛ وتدشينه الرّسمي من قبل رئيس الجمهورية الفرنسية "غاستون دومارغ" (GASTON DOUMERGUE) شخصيا يوم04 مايو1930 بحضور مجموعة من الشّخصيات المدعوة من دول مختلفة[14]. وقد كانت أولى مجموعاته الفنّية، مكوّنة خصيصا من لوحات الرّسم، والتّماثيل المنحوتة في نهاية القرن التّاسعة عشر، وبداية القرن العشرين من طرف فنانين فرنسيين، وبعض الفنانين الأوروبيين من هولندا، وإيطاليا على وجه الخصوص[15].

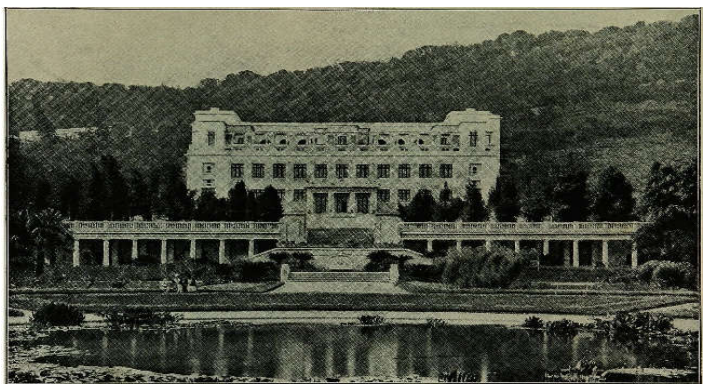

الصورة 01: المتحف الوطني للفنون الجميلة بالجزائر العاصمة، نظرة من حديقة التجارب (Mercier Gustave, 1931 : 241)

– **استحداث متحف قصر "الباردو"**: جاءت فكرة إنشاء متحف قصر الباردو الذي يعود تاريخ بنائه للفترة الحديثة (الفترة العثمانية) بعد مصادرة هذا المعلم التّاريخي العريق في سنة 1926، وتحويله إلى مقرّ متحف آثار ما قبل التّاريخ والأثنوجرافيا

عام 1928 في عقب استفادة إدارة الاحتلال من تصوّيت الجمعية العامة في الجزائر (البرلمان) عليه في إحدى جلستها العادية بشأنه[16]. إذ يعود الفضل لأحد روّاد تخصّص آثار ما قبل التّاريخ في شمال الجزائر، ألا وهو الباحث "ريغاس" (REYGASS) في إثراء مجموعاته الأثرية، المنطوية على أكثر من 100.000 قطعة أثرية تعود لمختلف فترات ما قبل التّاريخ في الجزائر، تنوّعت بين أدوات حجرية، وتحف فنّية عظمية، وبقايا مستحثات نباتية وحيوانية، وغيرها، حيث طُعّمت تلك المجموعات بمجموعات أخرى تمّ اكتشفها من قبل في مناطق مختلفة من الجزائر على يدي باحثين أجانب، أي غير فرنسيين[17]. وكان افتتاحه الرّسمي يوم 16 أبريل 1930 بمناسبة انعقاد المؤتمر الدّولي للآثار بالجزائر على يدي الحاكم العام للجزائر السّيد "بيار بورد" (PIERRE BORDES) بمعية محافظ الآثار الجزائرية "ستيفان كزال"(STEPHANE GSELL)، والمحافظ العام لاحتفالية الذكرى المئوية للاحتلال المحامي "غوستاف مارسييه" (GUSTAVE MERCIER) إلى جانب حضور السلطات العسكرية والمدنية بمدينة الجزائر[18].

– **إنشاء متحف الجيش:**جاءت فكرة تأسيس هذا المتحف بناءً على مبادرة خاصّة من بعض ضبّاط الجيش بقيادة العقيد "فرانسوا"(FRANÇOIS)ومساعديْه: العقيد "دوري" (DOURY)، والنّقيب "كوتينو" (COTINAUD)، إضافة إلى النّقيب "مارتان" (MARTIN)[19]، حيث استفادوا من دعم صندوق الاحتفالات بالذّكرى المئوية، ووزارة الحرب لتنفيذ مشروعهم الرّامي إلى تمجيد فِرَق الجيش المحتلّ للجزائر سنوات ثلاثينيات القرن التّاسعة عشر، المعروف آنذاك باسم "الجيش الإفريقي"، محاولة منهم تبييض مجازره، وأعماله الشّنيعة في حقّ الشّعب الجزائري وممتلكاته، وإظهاره في صورة جيشٍ فاتحٍ، يتمتع بإنسانية مثالية، جاء لتخليص الشّعب الجزائري

من نير الاحتلال التّركي الغاشم حسبهم. وقد حمل المتحف منذ ذلك الحين اسم أحد كبار السّفاحين في ذلك الجيش الغازي، ألا وهو المُشير: "فرونشي ديسبيري" (FRANCHET D'ESPERY)، الذي كان يشغل منصب المفتش العام لقوّات الجيش الإفريقي. فيما تم إيواء مقتنيات المتحف بداخل "قلعة الدّاي" (CITADELLE) القائمة إلى اليوم بأعالي مدينة الجزائر منذ تاريخ إنشائها في الفترة الحديثة، حيث تمّ تجزئة مقتنياته إلى ثلاث مجموعات رئيسية، وُضعت الأولى منها في مسجد القلعة، وقد تضمّنت على وجه الخصوص شواهد تذكارية متنوّعة لتمجيد "الجيش الإفريقي"، والزّي الذّي كانت ترتديه مختلف فرقه الفرعية منذ تاريخ الاحتلال 1830 إلى غاية تاريخ الاحتفال بالذكرى المئوية عام 1930، وقسما من آثار مقاومة الأمير عبد القادر بين سنتي (1832 –1847)[20]. أمّا المجموعة الثّانية فقد تمّ إيداعها بمقر أوّل مطبعة حديثة دخلت الجزائر مع قوّات الاحتلال سنة 1830، وقد تضمّنت وثائق عسكرية، وخرائط، ومخططات، وصور، بينما وُضعت المجموعة الثّالثة في بناية الطّاحونة القديمة للجيش العثماني، حيث تمّ عرض صور، ورسائل التّهنئة التّي وردت من القادة العسكريين، وسيوف تذكارية من ذهب وفضة تعود لأكبر قادة جيش الاحتلال[21]. فيما كانّ افتتاح ذلك المتحف يوم13 أبريل 1930 من طرف الحاكم العام للجزائر "بيار بورد"، برفقة اللّواء "نولان" (NAULIN)، والمحافظ العام للاحتفالات بالذّكرى المئوية، المحامي"غوستاف مارسييه"[22].

وإلى جانب استحداث المتاحف الثّلاثة الآنفة الذّكر، تمّ تهيئة مقرّات عدّة متاحف أثرية على الصّعيدين المركزي والمحلّي، كان من أبرزها على الإطلاق: متحف الآثار القديمة والفنون الإسلامية بمدينة الجزائر العاصمة، ومتحف وهران في

غرب البلاد، ومتحف "سيرتا" بقسنطينة، ومتحف تيمقاد، ومتحف جميلة، ومتحف "القديس أغستين" بسوق أهراس في شرقها[23].

2.3 تنظيم حفريات أثرية استعراضية وترميم المعالم التّاريخية: لم يقتصر اهتمام منظموا الاحتفالية باستحداث متاحف التّراث، وتهيئتها في هذا النّسق العام، وإنّما تعدّاه إلى برمجة حفريات أثرية، وترميم معالم تاريخية كثيرة، جعلت مقاطعات الجزائر الثّلاث (عمالة وهران، وعمالة مدينة الجزائر، وعمالة قسنطينة) تتحوّل إلى ورشة كبيرة للتّنقيب الأثري الاستعراضي، تمهيدا لاستغلاله اقتصاديا في الجانب السّياحي مستقبلا، كما يمكن أن يُستشف بوضوح من الميزانية المالية الضّخمة، المرصودة لهذا الغرض بإشراف "مصلحة المعالم التّاريخية" المستحدثة ببلادنا سنة 1880، وذلك على طول امتداد عمر التّظاهرة (1925 – 1939)، كما هو مفصل في الجدول أدناه[24]:

السنوات	المبلغ الإجمالي بالفرنك
1925	112.000
1926	347.500
1927	290.000
1928	/
1929	525.000
1930	625.000
1931 – 1932	835.000
1933	593.750
1934	450.000
1935	610.000
1936	588.000
1937	366.000

1938	/
1939	/
المجموع	**4.676.250 فرنكا**

علما أنّ جلّ تلك التّنقيبات الأثرية، ومشاريع التّرميم كانت مركزة على الآثار الرّومانية القديمة بشرق البلاد، كما هو واضح من عملية تأهيل المتاحف الأثرية عبر التّراب الجزائري، كتيمقاد، وجميلة، ولومبيز، وتبسة، وعنونة، وهيبون، وسيرتا على سبيل الذكر لا التخصيص والحصر(أنظر الصور رقم 02،03،04،05،06،07)، ممّا يؤشّر على رغبة فرنسا القوّية في البحث عن مبرّر تاريخي لاستمرار الاحتلال المؤقت، والارتقاء به إلى مصاف الاستيطان الدّائم، ولعلّ أبلغ دليل على ذلك، هو اختيار "قوس النّصر الرّوماني" كرمز، أو شعار رسمي للاحتفالية بوصفه شاهد أثري عريق، يتمتع بدلالة رمزية عميقة في هذا النّسق العام[25].

الصورة 02: الموقع الأثري بتيبازة

الصورة 03: الضريح الملكي بتيبازة

الصورة 04: تيمقاد

الصورة 05: جميلة

الصورة 06: لومبيز

الصورة 07: آثار هيبون بعنابة

3.3 مسابقات النّشر العلمي للأعمال المميّزة: أُسندت عملية تنظيم مسابقة للبحوث العلمية التّي تصبّ في برنامج التّظاهرة، والأهداف المرجوة منها، وكذا تولّي مهمة مراجعتها قبل عملية نشرها فيما بعد إلى أعلى هيئة علمية موجودة في الجزائر آنذاك، ألا وهي جامعة مدينة الجزائر[26]، حيث أُكلت لثلّة من أساتذتها الكبار مهمة انتقاء تسعة وثلاثين (39) بحثا على نسق ما وقع مع لجنة "الاستكشاف العلمي للجزائر" بين سنتي 1837 تاريخ بداية الإعداد لها على الطّريقة المنتهجة من قبل بمصر في غضون حملة "نابليون بونابرت"، وحملة اليونان سنتي(1829– 1830)، وسنة 1850 تاريخ نشر آخر تلك الأعمال العلمية الشّاملة لمختلف الخصائص الطّبيعة، والبشرية، والثّقافية للجزائر. ومهما كان من أمر، فقد تولّى رئاسة هذه اللّجنة رئيس الجامعة شخصيا السّيد "تليار" (TAILLIART)؛ فيما غطّت بحوث المشاركين في تلك المسابقة العلمية جوانب مختلفة، كالاقتصاد، والمالية، والحقوق والقانون، والعلوم الدّقيقة، والاستعمار، والتّاريخ، والآثار والفنون[27].أي بعبارة أوضح تثمين البحوث التّي شرعت في إنجازها لجنة "الاستكشاف العلمي للجزائر" منذ نحو تسعين (90) سنة خلت.

وكان من أبرز الأعمال المختارة في مجال التّراث الأثري من طرف هذه اللّجنة، وتولّي نشرها[28]: – كتاب "غبرييل إسكار" (GABRIEL ESQUER)، الموسوم بـ: "الإيكنوغرافية التّاريخية الخاصّة بالجزائر منذ القرن 16 حتّى سنة 1871، وهو كما يدلّ عليه اسمه كتاب ضخم، يقع في ثلاث مجلدّات من المقاس الكبير، يرصد تاريخ الجزائر[29] خلال الفترة الحديثة والمعاصرة بالرّسم والصّورة، اعتماد على رصيد الأرشيف التّاريخي المحفوظ سواء بالجزائر، أو فرنسا، أو بلدان أخرى، حيث يعتبر اليوم مَعينا أساسيا لكلّ باحث في الآثار، والعمارة، والتّاريخ، والفنّون التّطبيقية والجميلة، وعلم الاجتماع لمعرفة، ورصد محطّات التّحوّلات الثّقافية الكبرى التّي شهدها المجتمع الجزائري آنذاك.

– وكتاب اللّواء "بروسو" (BROUSSAUD)، حول تنميط البلاطات الخزفية بشمال إفريقيا خلال الفترة الحديثة، الموسوم بـ: "بلاطات الخزف الملوّن في شمال إفريقيا"، حيث تعتبر تلك الدّراسة –بصرف النّظر عن المآخذ المعرفية والمنهجية المسجلة عليها اليوم– بمثابة أقدم، وأشمل دراسة أثرية تسعى إلى تنميط، وتصنيف، وتحديد مصادر البلاطات الخزفية المستخدمة في تبليط، وكسوة جدران المباني الجزائرية خلال الفترة العثمانية باعتماده في تحقيقه المعرفي على مقتنيات المتاحف، وعيّنات المعالم التّاريخية، العائدة لتلك الفترة بالجزائر، والتّي يمكن حصرها حسب المؤلّف في أربع مجموعات رئيسية، هي البلاطات المحلّية الصّنع؛ والبلاطات المستوردة من هولندا؛ وبلاطات تونس؛ والبلاطات المجهولة المصدر.

– وكتاب الباحث "مارسيه جورج" (MARÇAIS GEORGES) حول اللّباس التّقليدي بمدينة الجزائر العاصمة في الفترة العثمانية، الموسوم بـ: "الزّيّ الإسلامي بمدينة الجزائر"[30] مع العلم أنّ العنوان لا ينطبق على محتوى الكتاب الذّي شمل زيّ

مختلف شرائح المجتمع بمدينة الجزائر خلال الفترة الحديثة في ضوء الأرشيف المصوّر، ووصف الرّحالة له بما فيه لباس اليهود، وغيرهم من الأقلّيات الدّينية، وليس فئة المسلمين فحسب، كما يمكن أن يستنتج من عنوان الكتاب، حيث يعتبر بمثابة وثيقة قيمة حول الأعراق البشرية المتعايشة في مدينة الجزائر ومظاهر لباسها التّقليدي المتنوّع الذي عمل المحتّل الفرنسي على وأْده بلا هوادة بدعوى الحداثة، والموضة الجديدة. علما أنّ الكتاب مفعم بالآراء والأفكار الإستدمارية المتطرّفة، ويكفي الرّجوع في هذا المقام إلى مطالعة تصدير الكتاب، ومقدمته[31]، حيث أبان فيهما المؤلّف على مقته للإسلام، واحتقاره الشّديد للجزائريين بالرّغم من كونه مؤسس "كرسي الآثار الإسلامية" بجامعة الجزائر لأوّل مرّة في تاريخ الجامعة الجزائرية عام 1919.

4.3 عقد المؤتمرات: تمّ في هذا النّسق العام عقد مؤتمرات عديدة، يمكن الاقتصار على أربعة منها فيما يخصّ موضوع هذه الدّراسة، وهي:

- **المؤتمر الدّولي للآثار:** أُدرج هذا المؤتمر ضمن برنامج الاحتفالات بالذّكرى المئوية، الرّامي إلى التّعريف بما أنجز من مشاريع واكتشافات في مجال علم الآثار بشكل عام، وما أسفر عليه التّنقيب الأثري بالجزائر وآفاقه المستقبلية بشكل خاصّ، حيث جرت وقائع جلساته أيام:14-16 أبريل 1930 في جامعة مدينة الجزائر برئاسة زعيم المدرسة "الكولنيالية" في علم الآثار والتّاريخ القديم بالجزائر الدّكتور "ستيفان كزال" (STEPHANE GSELL)، الذي لم يكن اختياره عشوائيا، وقد شارك في المؤتمر محاضرين من عدّة دول، تمّ توزيع مداخلاتهم على ثلاث مجموعات رئيسة بحسب التّخصصات الكبرى لعلم الآثار المعروفة بالجزائر، وهي: آثار ما قبل التاريخ، والآثار القديمة، والآثار الإسلامية[32]، وفق البرنامج الآتي:ثمان

(8) محاضرات حول آثار فترة ما قبل التاريخ؛ وخمس عشرة (15) محاضرة حول آثار الفترة القديمة وعلى رأسها الآثار الرّومانية؛ في حين لم يخصص للآثار الإسلامية سوى بمحاضرتين فقط، رغم الثّراء الكبير الذّي تزخر به الجزائر في هذا المجال[33]. ممّا يؤكّد بوضوح فكرة الانتقائية المنتهجة بمعايير دقيقة في عملية توظيف الآثار الجزائرية بتلك التّظاهرة العظمى. وعلى هامش المؤتمر تمّ تنظيم رحلة استطلاعية لفائدة المشاركين فيه قصد التّعرف عن قرب على كنوز ومقدرات الجزائر في مجال الآثار التّاريخية بمختلف فتراتها الزّمنية[34]، ودعوتهم غير مباشرة لاستثمار بحوثهم المستقبلية فيها.

– **مؤتمر الجمعيات العلمية المقيمة بباريس:** انعقد هذا المؤتمر في مدينة الجزائر العاصمة أيام 24–28 أبريل سنة 1930، حيث ترأس جلسته العامّة وزير التربية العمومية والفنون الجميلة في الحكومة الفرنسية بباريس؛ فيما ناقشت جلسات أشغاله مجمل الإنتاج المعرفي المحقق إلى غاية ذلك الوقت في الأقسام الآتية: قسم الفلسفة والتّاريخ، وقسم علم الآثار، وقسم العلوم الاقتصادية والاجتماعية، وقسم التّاريخ الحديث والمعاصر من جملة العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية؛أضف على ذلك قسم الجغرافيا، والفيزياء، والكيمياء، والمناخ، والرياضيات، وعلم الأرض، وعلم النبات، وعلم المعادن في مجال بقية العلوم الأخرى[35]. وكانت الغاية من ذلك هو الإشادة والتّرويّج لمنجزات حملة "الاستكشاف العلمي للجزائر" الآنفة الذّكر، كما جاء ذلك بمنتهى الوضوح والصّراحة في مناقشات الجلسة الختامية لذلك المؤتمر[36]. أي بعبارة أوضح الإشادة بإيجابية الاحتلال الفرنسي في مختلف المجالات المعرفية التّي حقّقها بالجزائر على مدار قرن كامل من الزّمن.

– **المؤتمر الدّولي للعلوم التاريخية:** انعقد المؤتمر أيام 14–16 أبريل سنة 1930 بقصر الجمعية العامّة (البرلمان)في مدينة الجزائر، وقد ترأس المؤتمر السّيد "كوفي"[37](COVILLE)، فيما كان افتتاحه من طرف الحاكم العام للجزائر "بيار بورد" الذّي أشاد في معرض كلمته أمام المؤتمرين بالإنجازات الفرنسية في الجزائر بشكل مبالغ فيه كثيرا؛ كما أثنى على الخدمات المتميزة التي حققها العلماء الفرنسيون في مجال الحضارة بالجزائر[38]. تلتها كلمة المحافظ العام لاحتفالية الذكرى المئوية للاحتلال المحامي "غوستاف مارسييه"، حيث ركّز فيها على العمل الفكري المنجز من قبل الفرنسيين بالجزائر على امتداد قرن كامل من البحث والمثابرة المتواصلة (1830 – 1930)، مذكّرا في ذلك بمجهودات الحكومة الفرنسية في مجال التّعليم، ودور مؤسسات التّعليم العالي في مجال الإنتاج المعرفي؛ بينما ركّزت مداخلات المحاضرين القادمين من فرنسا، والجزائر، والمغرب، وتونس، وبعض البلدان الغربية الأخرى على مواضيع التّاريخ القديم والوسيط في الجزائر[39].

– **مؤتمر الجمعية الفرنسية لترقية العلوم:** تم تنظيم هذا المؤتمر من طرف الجمعية الفرنسية لترقية العلوم، التّي تأسّست رسميا في سنة 1872، وقد جرت أشغال هذا المؤتمر بمدينة الجزائر أيضا، أيام 15–19 أبريل 1930 برئاسة السيد "رابو"(RABAUT)، أستاذ جامعي في كلّية العلوم بباريس، حيث شارك في المؤتمر أكثر من 300 محاضر، تمّت دعوتهم من داخل فرنسا وخارجها؛ فيما انتهت أشغال المؤتمر بتنظيم كالعادة رحلات استكشافية لفائدة المؤتمرين، كان من جملتها زيارة شاطئ سيدي فرج للتّعرف على أوّل مكان للإنزال الفرنسي سنة1830[40]..

4. منهجية التوظيف: يتضح جليا من العرض السّابق أنّ فرنسا قد اعتمدت في توظيف الآثار الجزائرية خلال احتفالاتها بالذكرى المئوية للاحتلال على منهجية دقيقة، يمكن إيجاز عناصرها الرّئيسية في النّقاط السّريعة الآتية:

1.4 التّمييز والانتقائية: نالت الآثار الرّومانية في العروض المتحفية، والتّنقيبات الأثرية، وعمليات الصّيانة والتّرميم، ومواضع المؤتمرات العلمية، والزّيارات السّياحية المؤطّرة النّصيب الأكبر، ثمّ بفارق كبير تعقبها آثار فترة ما قبل التّاريخ، ثمّ الآثار الإسلامية في ذيل التّرتيب بحضور رمزي. وهكذا ارتكزت عناية المهتمين بالآثار الجزائرية على معالم المدن الرومانية وصيانتها وترميمها، ومحاولة فرنسة الجزائر كما رومنة روما في إفريقيا، وذلك عن طريق طمس مقومات الشعب المستعمر وتعويضها بنظم سياسية واقتصادية وعسكرية وحضارية، وهذا في الواقع يرادف ما قاله محمد البشير شنيتي أن سياسة الرومنة تعتمد على: " تحويل الأنظمة الإدارية التي وجدوا عليها بلاد المغرب إلى أنظمة رومانية محضة"[41]

2.4 التّعبئة والدّعاية المغرضة: بدأ التّحضير لهذه الاحتفالية قرابة خمس سنوات كاملة، أي منذ عام 1925 إلى غاية ربيع 1930، حيث رافقها زخم إعلامي هائل، شمل الإشهار والصحافة و قد تمثلت هذه الأعمال في طباعة مجلات شهرية وكتيبات، محاضرات، بالإضافة إلى السينما والراديو، صور ولافتات، بطاقات وطوابع بريدية، حيث بلغت تكاليف ذلك ما لا يقل عن 6,270,000 فرنك[42]. و من خلال ما سبق ذكره يمكن القول أن فرنسا عملت كل ما في وسعها من أجل الدعاية لهذه الاحتفالية لتبين هالتها أمام الدول المتقدمة ظنا منها أنها استولت على الجزائر نهائيا.

الإعلانات الإشهارية والطوابع البريدية للدعاية للاحتفالات المئوية 1930

(Mercier Gustave, 1931, p144)

3.4 حشد التّأييد الخارجي لمسعاها المبيت: عملت إدارة الاحتلال على الأنشطة الجوارية الموجهة لفائدة المعمرين بالجزائر، والمجتمع الفرنسي بداخل فرنسا، كتنظيم العروض، ونشر الكتب إلى دعوة شخصيات مرموقة من دول صديقة لفرنسا، أو تربطهما مصالح دولية مشتركة برفقة أعلى الشّخصيات الفرنسية كزيارة رئيس الجمهورية شخصيا للجزائر من 04 إلى 17 ماي 1931، تم في هذه الفترة فتح وتدشين بعض المعالم التذكارية الخاصّة بهذه التّظاهرة، كقصر الصيف و افتتاح متحف الفنون الجميلة بالجزائر العاصمة، حضور المعرض العام للاحتفالات المئوية بوهران... الخ[43].ومن هنا يمكن القول أن الفرنسيون كانوا حرصين على أن يجعلوا من هذه المناسبة منبرا ليبينوا من فوقه نجاحهم في الاستعمار، ماديا وأدبيا. فاستعملوا كل ما لديهم من قوة مادية وأدبية في إثبات هذا النظام للعالم الخارجي عامة .

4.4 رمز الاحتفالية: اختار المنظمون للتّظاهرة "قصر النّصر الرّوماني" كرمز للاحتفالية[44]، وهو اختيار لم يكن من باب الصّدفة، و إنما اعتبروها كرمز للنصر خصوصا أنها آثار رومانية تشهد على انتصار روما في نظرهم و الهدف من ذلك هو تمجيد ماضيهم.

5. الغايات المرجوة من وراء توظيف الآثار في التظاهرة:

يؤكد "ألان كوبان" (ALAIN COBAIN) وجماعته بأنّها كانت احتفالات سياسية بأتم معنى الكلمة، وغايتها هي إضفاء الشرعية على الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى غاية سقوط الجمهورية الثالثة[45]، وقد تجلّى ذلك بوضوح في نقطتين أساسيتين: أوّلهما تشوّيه التّاريخي المحلّي، وإخفاء شخصية المجتمع الجزائري عبر العصور من خلال تصوّير التاريخ المحلّي في شكل احتلالات متتالية، وقصور الإنسان المحلّي على تسييس أموره بذاته، ناهيك عن إسهامه في بناء وترقية الحضارة الإنسانية، حيث لم يتوان غلاّة الباحثين وعلى رأسهم "ستيفان كزيل" بإرجاع ذلك إلى قصور ذهني يعاني من سكان شمال إفريقيا؛ فيما حاول مثقفو اليسار الفرنسي التّغطية عن ذلك بمبرر تمويه، مفاده أن عجز الإنسان الجزائري على بناء حضارة محلّية يعود للعنة الجغرافية، أي طبيعة تضاريس البلد. وثانيهما أنّ الاحتلال الرّوماني تمكّن من احتلال كلّ المنطقة ورومنتها إداريا وثقافيا[46]، ممّا يعني أنّ الاحتلال الفرنسي الذّي حذا حذوه في خطّته سيتمكن من "فرنسة" المجتمع الجزائري، حيث تعتبر هذه الاحتفالية الرّمزية بمثابة وقفة رمزية تؤكّد شهادة وفاة مقاومة الجزائريين للاحتلال، وتوقيع شهادة ميلاد الاستيطان الغربي الجزائري للأبد على نسق ما فعل "الأنجلو–سكسون" مع السّكان الأصليين في أمريكا الشّمالية قبل ذلك التّاريخ. وبالتّالي مدّ جسر حضاري بين الاحتلال الرّوماني، والاحتلال الفرنسي

بمنطقة شمال إفريقيا بشكل عام، والجزائر بشكل خاص من أجل وضع مبرّر تاريخي وهمي، يضمن استمرار الفرنسيين والغربيين بهذا البلد في عقب مناداة النّظام الدّولي الجديد، المؤطّر بهيئة عصبة الأمم بضرورة تقرير مصير الشّعوب المضطهدة عير العالم آنذاك.

6. أثرها على مجريات الأحداث الداخلية للبلاد:

بينما كان الفرنسيون يحتفلون بذكر الانتصار، كان الجزائريون الوطنيون يهمسون بالكلمات الآتية: "يحتفل الفرنسيون بالقرن الأول، ولكنهم لن يحتفلوا بالقرن الثاني"، ويصفون الاحتفال بالمهزلة. فقد كان حزب نجم شمال إفريقيا يستنكر الاحتفال بالذكرى المئوية، حيث قام في صيف 1928 بتوزيع منشورا بالعربية والفرنسية داخل الجزائر مفاده الاستقلال، وكان عنوانه:"النضال ضد الإمبريالية الفرنسية"، وقد تحدث بإسهاب عن الاحتلال ونتائجه، كما نشر أيضا بيانا في جريدته الموسومة بـ: "الإقدام" سنة 1928أيضا عنوانه: "من أجل استقلال إفريقيا الشمالية"[47].

وخلاصة القول فإنّ تخمين الفرنسيين الذي مفاده أنّ هذه الاحتفالات ستحطم روح المقاومة في نفوس الشّعب الجزائري إلى الأبد، واجهها هذا الأخير بقراءة إيجابية، واعتبرها محفزا مباشرا لتأجيج مظاهر مقاومته، وتأكّيد حقّه المشروع في الاستقلال التّام، ولو بعد حين، كما أكّده تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، والتّأكيد على الهوّية العربية والإسلامية للمجتمع الجزائري. وبذلك كانت الاحتفالات المئوية فرصة جديدة لإثارة نقاش مثمر وبنّاء حول القضية الجزائرية، سرعان ما انجرّ عليه تسارع وتيرة نموّ الوعي الوطني، وتفعيل هيكلة

التيارات السّياسية المحلّية، المتوجه شيئا فشيئا للتّحرّر التّام من ربقة الاحتلال الغاشم.

خاتمة:

ونستنتج مما سبق، أن من مقاصد فرنسا من هذه الاحتفالية هو تكريس النظام الاستعماري، حيث اعتبر آنذاك معيارا للهيمنة الأوروبية على العالم، لذلك أحاطت الدولة الفرنسية الاحتفال بهالة ضخمة لإبهار الدول المتقدمة، وفي الوقت نفسه محاولة إقناع الجزائريين بعظمة فرنسا وهيمنتها التّي لا تقهر في حرب نفسية سرعان ما عادت عليها وبالا، وخلاصة القول أن تنظيم هذه التظاهرة نتج عنه في الحقيقة نتيجتين، الأولى موجهة للأقدام السوداء في الجزائر، أي مد جسر وهمي بين الاحتلال الروماني والاحتلال الفرنسي لإضفاء مشروعية تاريخية بالنسبة للمعمرين، والثانية موجهة للأهالي، أي أن فرنسا أمة كبيرة متحضرة وقوية آلت على نفسها تحضير مجتمعات أقل حضارة منها، وقد استغلت هده المناسبة للإشادة بنجاح الاستيطان وإنجازاته، واعتبرت القطر الجزائري جزء من التراب الفرنسي ولم تعتقد يوما بأنها ستخرج من الجزائر، وأن هذه التظاهرة كانت حدثا مهما في تسارع الوعي الوطني، وتغير مسار الحركة الوطنية.

هوامش البحث:

[1]- بوعزيز يحيى، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2007، ص 73.

[2]- بوعزيز يحيى، نفسه ،ص 73.

[3]- بوعزيز يحيى، نفسه ،ص 73.

[4]- بوعزيز يحيى، نفسه ،ص 74.

[5]- بوعزيز يحيى، نفسه ،ص 74.

[6]-محساس أحمد، الحركة الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة، دار القصبة للنشر، الجزائر،2003، ص 84.

[7] -المرجع نفسه ،ص 74.

[8]-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900 – 1930، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، 285.

[9] - Le Centenaire de L'Algérie Française. Programme, 1929, Alger, numéro spécial de la « Presse nord africaine », 10 décembre : p 10.

[10]- أرشيف ما وراء البحر (CAOM)،علبة رقم 64S/39، المتاحف.

[11] - MERCIER (Gustave), Le Centenaire de l'Algérie, Exposé D'ensemble, Tome 01, Editions Soubiron, Alger, 1931, p 230.

[12]-Ibid, p 230.

[13]- أرشيف ما وراء البحر (CAOM)،علبة رقم 64S/40، المتحف الوطني للفنون الجميلة.

[14]- أرشيف ما وراء البحر(CAOM)، علبة رقم 64S/40، المتحف الوطني للفنون الجميلة.

[15]-ALAZARD (Jeans), Cent Chefs d'œuvres du musée national des beaux-arts d'Alger, Paris, 1951, p02.

[16] أرشيف ما وراء البحر (CAOM)، علبة رقم 64S/39، المتاحف.

[17] - Direction de l'intérieur et des beaux-arts du gouvernement général,1952,Le Bardo musée d'ethnographie et de préhistoire d'Alger, Presse de l'imprimerie officielle, Alger, p13.

[18]- MERCIER, Op.cit, p 276.

[19] - MERCIER, Op.cit,p 256.

[20] - MERCIER, Op.cit,p 256.

[21]- MERCIER, Op.cit,p 256.

[22]-Ibid, p 258.

[23] -أرشيف ما وراء البحر (CAOM)،علبة رقم 64S/39، المتاحف.

[24]- أرشيف العمارة والتراث (MAP)، علبة رقم81/99.02، ملف رقم 006.

[25] - Deloncle Pierre , La Vie et Les Mœurs en Algérie, Cahiers du centenaire de l'Algérie, Fasc.x. Publications du comité métropolitaine du centenaire de l'Algérie, 1930,p 6.

[26] - MERCIER, Op.cit,p 381.

[27]-أرشيف ما وراء البحر (CAOM)،علبة رقم 64S/02، لجنة المنشورات.

[28]-أرشيف ما وراء البحر(CAOM)، علبة رقم 64S/02، لجنة المنشورات.

[29]- Gabriel Esquer, Iconographie Historique de l'Algérie depuis le XVI[e] Siècle jusqu'à 1871, Librairie PLON, paris,1929.

[30]- Georges Marçais, Le Costume Musulman D'Alger, Librairie PLON , Paris, 1930.

[31]- Georges Marçais, Ibid, p 01.

[32] -LESCHI(Louis), «Le cinquième Congrès International d'Archéologie (Alger 1930)»,In: Journal des savants, 1930,p 273.

[33]- Le Livre D'or Du centenaire de l'Algérie Française 1830 – 1930 – L'Algérie – Son Histoire, L'œuvre Française d'un siécle , Les Manifestations du Centenaire, Editions Jacques GARDINI, 2003, p 149.

[34]-أرشيف ما وراء البحر(CAOM)، علبة رقم 64S/55، المؤتمرات.

[35]- أرشيف ما وراء البحر(CAOM)، علبة رقم 64S/55، المؤتمرات.

[36]- Gustave Mercier, Op,cit, p 189.

[37]-أرشيف ما وراء البحر(CAOM)، علبة رقم 64S/55، المؤتمرات.

[38]- Le Livre D'or, Op,cit, p 147.

[39]-MERCIER, Op.cit,p170.

[40]- A.CORBIN, Le Livre d'or Du Centenaire De L'Algérie Française, Préface de, éditions Jacques Gandini, 2003,p 2.

[41]- محمد البشير شنيتي، سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية وسقوط موريطانيا نهائيا (146ق.م/40م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982، ص 75.

[42]- أرشيف ما وراء البحر(CAOM)، علبة رقم 64S/06، اللجان.

[43] - MERCIER, Op.cit,p 342.

[44] - Deloncle Pierre , Op :cit, p 6.

[45]- CORBAIN (Alain) & autres ,Les Usages Politique des fêtes aux XIX[e]- XX[e] siècles, Publications de la Sorbonne,Paris, 1994, p 9.

[46]- شنيتي (محمد البشير)، المرجع السابق،ص 75.

[47]–أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص 307.